**مائة سؤال عن الإسلام**

**للشيخ محمد الغزالي**

 **السؤال الرابع عشر – الفقه الاسلامى**

**إن كلمة الفقه في ثقافتنا التقليدية تشبه كلمة الفكر في عصرنا الحاضر فإذا وصف إحدى الناس بأنه مفكر فمعنى ذلك في ذكائه حدة وفى بحثه عمقا وفى نظره بعدا ويوجد ناس صالحون قليلو الفقه لعلهم المعنيون بقول القائل : من أصحابي من أرجو دعوته وأرفض شهادته ! . والواقع أن هناك متدينين لا تقبل فتاوهم ولا أحكامهم كبعض الخوارج وبعض الصوفية وبعض المحدثين فإنهم مع نقاء سرائرهم لم يرزقوا الحكمة والوعي ولم يحسنوا العمل بما يعملون لأنهم حرموا الفقه**

**ولقد تناول الفقه الاسلامى شئون الحياة كلها فهو مع المرء في يقظته وفى فراشه وفى خلوته وجلوته وفى سفره وإقامته وفى أدق شئون جسده وفى علاقته بالدولة وفى علاقته بشتى الملل والأجناس إن القران الكريم كما تحدث عن العقائد والأخلاق نحدث عن العلاقات الاجتماعية والدولية ورسم للأسرة وللدولة جميعا ما شاء الله من شرائع وتوجيهات وسيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن سيرة رجل يعيش في في صومعة بل كانت سيرة عابد مجاهد يشرف على الاستقامة الأخلاق كما يشرف في الوقت نفسه على توزيع المال في المجتمع والإمساك بدفة الحكم وشئون الحرب والسلام اى إن صومعته كانت الدنيا كلها وان فقهنا الاسلامى يتسع طولا وعرضا ليشمل كل شىء انه يتحدث فى شئون العبادة من صلاة وصوم وزكاة وحج ويتحدث فى الشئون الأسرة من زواج وطلاق وحضانة ومواريث ويتحدث في الشئون التجارية من بيع وإيجار وشركات وكفعالات وحولات ... الخ**

**ويتحدث فى الجنح والجنايات المتعلقة بالعرض والدم والمال ويشرع أنواع الحدود والقصاص ويتحدث فى الشئون الدولية وفيما قد يقع من خرب أو يعقد من صلح أو هدئة أو أمان .... الخ**

**وان اختلاف وجهات النظر بين الفقهاء يعطى الساسة والقضاء فرصا كثيرة فى نطاق الشريعة على هدى من مبادئها**

**ومن الموضوعات الجديرة بالدراسة الجادة : تقنين الفقه الاسلامى وصب إحكامه فى مواد محدودة يتصرف القاضى على ضوئها وفى نطاقها**

**ولقد قرر المسلمون بالإجماع ان العلم النظرى وحده لا يكفى فى إعطاء قيمة أدبية لإنسان لا بد معه من تجرد لله وصلابة في الخلق ونزاهة في السلوك واستعلاء على إغراء الحكم والمال**

**إن ضيق الخلق والأفق يجر على المسلمين البلايا وماكان الفقهاء قديما يرون الخلاف مشار فتنة بل وجدنا الشافعي ( 150 – 204 هجريه / 820 - م ) يقول : ( الناس في الفقه عيال على أبى حنيفة ) مع رفضه لكثير من أرائه !**

**إن هؤلاء الأئمة الإعلام صنعهم الإسلام ولم يصنعوه وان التعصب المذهبي منكور بين العامة وارى انه بين الفقهاء جريمة غليظة**

**وان فوضى الإفتاء والتقاضي قديما هي التي انتهت بإلاغلاق باب الاجتهاد وتجميد الفقه كله وما تبع ذلك من ركود وتراجع لقد ظلمنا رسالتنا عندما جمدنا فقهنا الف عام**

**وللإجماع فى الفقه الاسلامى معنيان**

**1 - اجماع على حكم شرعى مستفاد بطريق القطع من كتاب الله تعالى او من سنة رسول الله صلى عليه وسلم**

 **ولما كانت الامة لا تجتمع على ضلالة فإن الخروج على هذا الحكم يعد انفلاتا من الاسلام وخروجا على الدين**

**2 – اما الاجماع الاخر فهو اتفاق اهل النظر وارباب الاجتهاد على حكم ثبت بطريق القياس او رعاية المصلحة او تطبيقا للقواعد الفقهية المعتبرة او ما شابه ذلك من الأدلة ويجب احترام هذا الإجماع والتزام الإفراد به وإذا حدث ما يستوجب إعادة النظر فيه فهو ينسخ بإجماع أخر من أهل الذكر وأصحاب الحل والعقد والخروج على هذا الإجماع قد يكون فسوقا أو عصيانا وربما لابسه مايؤدى إلى الكفر**

**وإجماع الأئمة الأربعة على حكم ما أو على فهم ما لا يسمى أجماعا إذا كانت ثمت مذاهب صحابة أو تابعين أو مجتهدين آخرين**

**ولقد سوى الفقهاء من قديم – بين جحد العقيدة وبين إنكار ماهو معلوم من الدين بالضرورة والخلاف العلمي يترجح بقوة الدليل لا بكثرة الإتباع ولقد رأيت لابن حزم ( 384 – 456 هجرية / 994 – 1064 م ) أراء كان فيها أولى بالحق من غيره وأقوم قيلا كما رأيت لابن تيمية ( 661 – 728 هجرية / 1263 – 1328 م ) فقها ناضجا بالذكاء والتألق**

**وان القوانين الوضعية التي جلبها الاستعمار معه لها وظيفة مقررة وظيفة أهم من اقتياد امة مهزومة عسكريا وسياسيا وفرض إرادة الغالب عليها أنها تشويه متعمد لوجه الأمة الإسلامية أو مسخ حقيقي لكيانها الروحي والعقلي والهدف الأخير لها هو الإتيان على الإسلام من القواعد**

**إن القوانين الرومانية وثنية الأصل أرضية النزعة لا علاقة لها بالسماء**

**ومن السماجة التي لا قرار لها إن يستغرب احد المطالبة بحكم الله وان يعرقل سير القوافل المؤمنة وهى تنتصر لشرائع السماء**

**وان الصراع القائم ألان هو بين سماسرة الغزو الجديد ومروجي عقائده وأنظمته وبين حراس الإسلام الأوفياء لتراثه وتاريخه وأمته**

**ونحن لا نزعم إن القوانين الوضعية شر كلها فهي من صنع الإنسان الذي يصيب ويخطى ويضل ويهتدي وربما تضمنت أمورا جديرة بالقبول خصوصا عندما تعمل في الميدان الادارى والدستورى ولكن لا ينسينا امرين :**

**اولهما : انها جعلت إقصاء الاسلام وإزهاق روحه هدفها الكبير**

**والاخر : انها تنقل الينا قيم واعراف اقطار جرفتها فلسفات مادية لا تؤمن بالله ولا باليوم الاخر وعندما نشرع فى رد قوانيننا كلها الى فقهنا الاسلام فسنجد انفسنا أمام ينابيع دفاقه وثروات طائلة ورجال مهدوا الطريق واستحقوا التقدير وما علينا إلا إن نحسن التأسي ونسرع المسير**

**وان عقوبات الحدود رادعة تحقق الأمان قد تكون نجد والحجاز اقل حضارة من الولايات المتحدة بيد إن ظلام الإرهاب والإجرام والتوجس والفزع لا وجود لا وجود لها في هذه الإرجاء الفيحاء ما السبب ؟ إقامة الحدود**

**لو إن عربة محملة بالذهب مشت من شمال اليمن إلى أول الشام ما فكر احد في اعتراضها إذ الناس رجلان إما خائف من الله فهو يعاف أكل السحت وأما خائف من شريعته فهو واقف عند حده لا يتعرض لقطع اليد ولا لقطع العنق**

**ولم يقل احد أن الجائع تقطع يده إذا سرق ما يقوته وإنما تقطع يد البطال المعتدى على كسب الآخرين وكدحهم والذي يبنى سلوكه على الظلم والإفساد إن المسلحين المتظاهرين على النهب والسلب المتعاونين على الإثم والعدوان وقطع الطريق واشاعة الفوضى مجرمون وقتلهم حق**

**ثم ان الذى شرع الحدود ندب المؤمنين الى الستر على المنحرفين ومنحهم فرصة عتاب لعلهم يرعوون**

**ان فقه الفروع ثانوى فى رسم السلوك الاسلامى وان شغل العامة به لون من الثرثرة الدينية المعطلة للانتاج والمضيعة للطاقة على الجهاد وان اتباع اى راى لامام ثقة خطأ ام صوابا فى نظر الغير لا حرج فيه ولا بلد عدواة لاحد**

**انه اذا كان القتال الغبى لا مساغ له من اجل العقيدة فكيف اذا كان فى سبيل نقاب يوضع على وجه امراة او غطاء يوضع على قافية الرأس او صورة ترسم على ورقة ؟ ان البعض مستعد لحرب اشد من حرب داحس والغبراء من اجل هذه القضايا**

**إن الفقه الاسلامى يحتوى على كل مايهم البشرية من المهد الى اللحد والفقه الذى ورثناه مع مطالع القرن الخامس عشر الهجرى بعد اغنى فقه فى العالم والمهاد الذى يتحرك فوقه لا نظير له فى دنيا الناس وعلم الفقه له مكانته فى الثقافة الاسلامية لكن مكانته تجىء بعد علوم العقيدة والاخلاق ان اركان الدين ومعالم الايمان ودعائم الاخلاق ومعاقد الشريعة هى موضع اتفاق بين خاصة المسلمين وعامتهم**

**وان الفقهاء اربعة – أبا حنيفة ومالكا والشافعى وابن حنبل – كانوا قمما فى التقوى والمعرفة والنصح للامة واقصاء مشاعر الرغبة والرهبة من كل حاكم مهما امتدت دولته وعظمت سلطته انهم رجال كبار لكنهم لكنهم ليسوا معصومين ولا فرض احدهم نفسه على الامة ولا كلفنا باتباع واحد بعينه منهم وانما نحترمهم لقول الرسول صلى الله عليه وسلم " ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه " أخرجه ابو يعلى**

**ان فقه الكتاب والسنة لا يرشح له الا اهل النباهة والتقوى ولقد كنت اول الامر ناقما على اغلاق باب الاجتهاد ولكن لما انكسر الباب وتحدث فى الاسلام من يعقل ومن لا يعقل بل كان صوت المرتزقة اعلى من صوت المخلصين ! عذرت الذين اغلقوا الباب واطفئوا الفتن ايعنى هذا اننى لا اريد فتح هذا الباب ؟ كلا**

**ان الاجتهاد التشريعى خصوصا فيما يمس المعاملات الداخلية والخارجية ضرورة دينية واجتماعية والذى ادعوا اليه ان تقوم مجامع كبيرة من علماء راسخين لا يخافون فى الله لومة لا ئم يحيون الاجتهاد الجماعى القديم ويقومون بعملين مهمين**

**الاول : انعاش واحياء الفقه الدولى لتحديد اوضاعنا العالمية واعادة النظر فى انظمة الحكم الداخلية لانقاذ المسلمين من مساوىء الحكم الفردى ومظالم المستبدين وانشاء شرائع ادارية تضبط شئون العمال وتوزيع الاموال وتصون الحقوق الخاصة والعامة**

**اننا متخلفون بضعة قرون فى هذا المجال ولا يجوز ترك الاسلام يفترسه هذا الموت الادبى**

**اما العمل الثانى : فهو مراجعة المذاهب الفقهية السائدة وغربلة أحكامها فمن الغرور القول بان مذهبا انفرد بالصواب كله ومذهبا أخر يغلب عليه التخطيط**

**ووجود مجمع فقهي اسلامى عالمى يجتهد فيما جد من قضايا وفيما عانينا من فرقة وضعف امر لا بد منه**

**اننى لست ظاهريا لكننى اتبع الدليل حيث كان وكثيرا ما ارفض اجتهادات لابن حزم ولغيره من أئمة الفقه لان وجهات نظر اخرى بجت لى ارجح والشىء الذى اتشبث به فعلا وتركا ما انعقد اجتماعنا عليه**

**اما عرض بعض المذاهب السائدة أو الشاذة وعرض بعض التقاليد البدوية أو الحضرية على أنها الإسلام فهذا ظلم للإسلام وربما كان صدا عن سبيل الله**

**انه لا قداسة لاجتهاد والخلود لكتاب الله وسنة رسوله وبدية إننا ندع اجتهاد فقيه لاجتهاد مثله ولا نفتح الباب للأدعياء والدجالين ومم لا قدم له في علوم الشريعة ومع سير الزمن أرى إن نعيد النظر في الاجتهاد الفقهية لنعرف بدقة نتائجها التطبيقية وغايتي خدمة الإسلام بما يناسب المرحلة التي بلغتها الإنسانية كلها في هذا العصر الخطير إن المتواتر يحكمني والصحيح يلزمني إما المرويان الأخرى فلا اكتراث وان العرف السائد يحكم عليه ولا يحتكم إليه والأساس المرعى هو كتاب الله وسنة رسوله**

**ونحن نؤكد إن النصوص على العين والرأس هان الخلاف الفقهي وجهات نظر تخضع للموازنة والترجيح ولا قداسة لأحدهما**

**ولست من هواة التغلغل في الفروع الفقهية فإن أصول العقيدة والأخلاق والتشريع تهمنا وتستغرق وقتي وما انظر في الأمور الفرعية إلا بمقدار ما اجمع بت الشمل وامنع الفرقة وأقصى المتزمتين والملولين عن أماكن الصدارة**

**لقد مرت بالمسلمين عصور طوال أصبح فيها فقه الفروع عمود الدين وسنامه وذروة أمره ! أو أصبح البحث في صور العبادات وإشكالها هو الشغل الشاغل للخاصة والعامة**

**وربما اختلف الفقهاء: أيقرأ المصلى وراء إمامه أم لا ؟ بيد انهم متفقون على ان الخشوع روح الصلاة وان من فقد هذا الخشوع فقدت صلاته قيمتها سواء قرأ أو صمت**

**إنني أميل إلى إغلاق باب الاجتهاد الانتقائي نأخذ ما تدعو إليه الحاجة وندع ما عداه من الثروة الطائلة التى الت ألينا إن الخطأ الفقهي مأجور أما الخطأ الخلقي فهو إثم وتربية اللحية من سنن الفطرة وتربية النفس من أركان الإيمان**